Patrick Haenni

L'Islam de marché: L'autre révolution conservatrice

(Paris: Seuil, 2005). 108 p.

إسلام السوق: الثورة المحافظة الأخرى

بشرى زمان(*)

باحثة بسلك الدكتوراه، مختبر المجتمع المغربي، الديناميات والقيم بجامعة شعيب الدكالي ـ المغرب.

ملخص

حوَّلت مفاهيم السوق، التي شملت مشروع الحركات الإسلامية، النشاطَ الديني إلى مشاهد لأنماط العروض الدينية في مجتمع الفرجة/الاستعراض (la société du spectacle)، تعتمد بناء الصورة على حساب المضمون؛ وتسوِّق المضمون على شكل صورة حداثية جذابة تستجيب لمتطلبات ومعايير الدعاية العالمية، تعرِض النساء في هذه الحركات صورة جديدة تغدو منظومة القيم القديمة ـ خلال هذا العرض المفتوح والمعولم ـ مجرد علامات استهلاكية؛ في فضاء الرأسمالية العالمية؛ هذا المجتمع الحديث الذي تتمحور دعاماته حول مفهوم الصورة.

إن هذه الأنماط الجديدة والمتنامية من التدين، التي يهيمن عليها حس التطبيع الهوياتي والاندماج في الفضاء العالمي، لم تحظ بما يكفي من الدراسة السوسيولوجية، لذلك تتوخى هذه الورقة تقديم جوانب من كتاب **إسلام السوق** لباتريك هايني مع التركيز على إشكالية حضور المرأة في الحركات الاسلامية؛ في مقاربة نقدية لتجليات التحول على مستوى أنماط التدين الجديدة التي باتت تتبناها هذه الأخيرة على عدة مستويات من بينها (الحجاب الجديد والغناء الإسلامي والتدين الفرداني)؛ في اتجاه نحو الانفتاح على العالم ورفض الانغلاق الهوياتي والتخلي عن سرديات الحركات الإسلامية الأولى.

كلمات مفتاحية: كتاب إسلام السوق؛ أنماط التدين؛ نساء الحركات الإسلامية؛ الحجاب الجديد؛ الغناء الإسلامي؛ التديُّن الفردي.

تقديم

حظي كتاب **إسلام السوق: الثورة المحافظة الأخرى** للباحث السويسري في

(*) البريد الإلكتروني: bouchrazmn@gmail.com

العلوم الاجتماعية باتريك هايني بالكثير من الجدل العلمي، والذي صدر في نسخته الفرنسية سنة 2005 ليُترجَم من طرف عومرية سلطاني إلى اللغة العربية لدار النشر مدارات للأبحاث والنشر مطلع عام 2015، وذلك لما تميز به من جرأة في الطرح والتحليل. تجلت جرأة الكاتب بدءًا من العنوان المثير، ناهيك بمضامينه وتفاصيل فصوله التي قدمها في 225 صفحة معزَّزة بأسلوب وصفي جذاب وإطار مفاهيمي جديد وقوي؛ يقابل مفاهيم الحركات الإسلامية القديمة، عرضها في أربعة فصول (تجاوز الإسلاموية، تدين تحركه قوى السوق، إسلام السوق؛ حركة إصلاح للذوات الدينية، فاعلون لتحجيم الدولة) متأثرًا بأطروحة كل من أوليفييه روا و جيل كيبل حول فشل مشروع الصحوة الإسلامية التي تبنته الحركات الإسلامية.

غير أن الذي أثار اهتمامنا هو عروج الكاتب على فاعلية النساء في الحركات الإسلامية وتناوله إياها على هامش تحليله، مركّزًا على الفاعلية الذكورية، حيث تتجلى في المقابل السلبية النسائية والحضور الباهت في مشهد التحولات القوية التي همت منظومة القيم وتجلياتها الكبرى على كل من نساء ورجال الحركات الإسلامية على حد سواء.

تتأسس أطروحة الكتاب على رصد نمط جديد من التديُّن في المجتمع الإسلامي منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ وزحف العولمة نحو المنظومة القيمية التي تؤسس لفكر الحركات الاسلامية ـ ولا سيما منها حركة الإخوان المسلمين ـ والتي باتت تتبنى مظاهر العولمة وقيم الرأسمالية سعيًا وراء التفوُّق الفردي بدلًا من الخضوع لنظام الجماعة، وعصرنة المفاهيم الإسلامية بما يتلاءم ومقتضيات السوق العالمية.

تسعى هذه الورقة؛ إذًا، للوقوف بنحوٍ أكثر تفصيلًا عند أنماط التديّن الجديدة لدى المرأة في الحركات الإسلامية؛ وتحديدًا حركة الإخوان المسلمين والذي أغفله الكاتب ـ إلى حد ما ـ مركزين على أهم أشكال التحولات التي أصابت المجتمع النسائي لهذه الحركة.

إذا كان هذا الكتاب يقدم مشاهد من التحولات النوعية والشكلية التي خلخلت أسس التنظيمات الإسلامية ووضعت معاييرها وقيمها موضع المساءلة؛ فهذا يدفعنا إلى طرح السؤال التالي: إلى أي حد ظلت الحركات الإسلامية في ظل التغيرات العالمية وتصاعد قيم الاستهلاك والفردانية؛ متشبثة بسردياتها الكبرى وبنموذجها النقي والزاهد في مظاهر الترف الدنيوي؟ وما أهم أنماط التديّن الجديدة لدى نساء هذه الحركات على وجه التحديد؟

سنقسم ورقتنا إلى ثلاثة أنماط من التديّن لدى نساء الحركات الإسلامية: **أولًا**، النزعة الفردية وحدود الانعتاق من الشرط التنظيمي؛ **ثانيًا**، صوت المرأة من حكم العورة إلى أفق النجومية؛ **ثالثًا**، الزي الإسلامي للمرأة المحجبة بين قيمة الحياء واستهلاكية الحشمة).

أولًا: النزعة الفردية وحدود الانعتاق من الشرط التنظيمي

يبدو أن التحول الحاصل في المشهد الديني للحركات الإسلامية يتعرض لحالة مما أسماه باتريك هايني «نزع القداسة

عن الالتزام التنظيمي» و«الانتقال من المطلق إلى النسبي»، حيث أصيب الجسد التنظيمي الحركي بالترهُّل ولم يعد قادرًا على إقناع أعضائه وعضواته والمتعاطفين والمتعاطفات معه بصلابة خطابه وبنيته القيمية القديمة، وذلك في ظل موجة التدفقات الثقافية العولمية التي تسربت إلى كيانه الداخلي. فانتزعت الميولاتُ الفردية مقوماتِ التماسك الجماعي لهذه التنظيمات التي كانت تتأسس على الطاعة والامتثال لتعليمات المسؤولين؛ لتحل محلها المزاجية الفردية والاحتكام إلى موجة التنمية الذاتية والنجاح الفردي. ليتلاشى بذلك وهج التنظيمات الإسلامية وترتخي حبال العلاقة التي كانت مشدودة مع الحركة و«تتآكل مصداقية التنظيم بشكل مستمر في نظر مجموعة من ناشطيه بحيث لم يعد يمثل لهم كيانًا مسؤولًا عن التنشئة الاجتماعية» (هايني، 2015: 37).

وهكذا انخرطت «الأخوات المسلمات» في مسلسل الانعتاق من قيود الشروط المعيارية التي كانت تفرضها حركة الإخوان المسلمين على النساء بجرعات أكبر؛ والتي يبدو أنها أثقلت كاهلهن ولا سيما الجيل الجديد الذي وجد بوابات العولمة مفتوحة أمامه على مصراعيها، لتنهل النساء اللواتي على تخوم حركة الإخوان المسلمين من فيض لائحة القيم الرائجة. ويمكن ملاحظة هذه الأنماط في طبيعة الممارسات والسلوكات في الكثير من المجالات؛ ليظهر مفهوم «التدين الفردي» والذي «جاء نتيجة التحولات الكبرى التي عرفها الحقل الديني، وهو يعني أن الفرد/ المسلم، خصوصًا الشاب، يصبح مرجعًا لنفسه في الاستمداد والتلقي والممارسة والتوجيه والسلوك والتمثل، حيث يسقط كل المرجعيات والسلطة الدينية» (الجرموني، 2022: 43).

في هذا السياق، توسع المخيال الديني لنساء الحركات الإسلامية وبات غير محدود ليفسح المجال أمام مضاعفة اكتساب المهارات الفردية المستوردة من مراجع أيديولوجية غربية تتناسب والمشهد العالمي؛ من قبيل تمكين المرأة في إطار النسوية الإسلامية، المشاركة السياسية في تدبير الشأن العام، ومكافحة العنف ضد النساء، وحقوق المرأة، والاحتفال باليوم العالمي للمرأة، وعيد الحب، والتفكير الإيجابي وتفعيل الطاقة الأنثوية ... إلخ، لتَتطَبَّع المرأة المنتمية إلى هذه التنظيمات بالمحتوى الثقافي للنساء الغربيات مبتعدة عن تقديم النموذج الخالص للمرأة المناضلة التي تروم إبراز البديل الإسلامي في صيغته الحركية؛ «هناك عالم ذهني جديد قيد التشكل يتميز بالترقيع والانفتاح على الخارج، ورفض الانغلاق الهويَّاتي، والتخلي عن السرديات الكبرى. تشرق إذًا نضالية الغد التي هي ثمرة أفراد مندمجين اجتماعيًا وغير مهتمين، بُنيويًّا، بالدفاع عن القضايا الكبرى» (هايني، 2015: 54).

هناك إذًا؛ في ظل الدفق المعلوماتي بوسائط التواصل الاجتماعي والإنترنت استقبال النساء وتبنّيهن المنظومات القيمية الحداثية وما بعد الحداثية؛ التي تعزز الإرادة الفردية والحرية الشخصية والتمرد على الحدود المرسومة للفرد من جانب المؤسسات الدينية، لنلاحظ هذا التوجه العام في عرض هذه القيم على الصيغة الإسلامية في محاولة للتوفيق الفرداني؛ كل على حسب مقاربتها الشخصية وتمثلها

لهذه القيم بحثًا عن إيجاد حل للمعادلة الترميقية الصعبة، «هذه التأويلات التي تمس الدلالات الأصلية لتلك المفاهيم تعمد إلى انتزاعها من فضائها الطبيعي في الفقه الإسلامي، ووضعها في حقل دلالي مختلف عن حقلها الأصلي [...] يبدو أن هذا تحدٍّ فكري جديد يُعنى بالحفاظ على استمرار عمل المرجعية الدينية في سياق فكري متشظٍّ موسوم بطابع الانفتاح الثقافي، مع ميلٍ شديد الوضوح للعلمنة» (هايني، 2015: 57).

ثانيًا: صوت المرأة من حُكم العورة إلى أُفق النجومية

لم ينتبه باتريك هايني، أثناء تقديمه التحولات التي مست النشيد الديني؛ مشهد التحول الذي أصاب المجتمع النسائي في الحركات الإسلامية؛ والذي كان يشدد على حكم تحريم إنشاد المرأة خارج المجال الخاص بالنساء، وهن يقدمن البديل الإسلامي للأغنية؛ خصوصًا في المناسبات (الأعراس، العقيقة، الحج، المآتم...)؛ هذه المناسبات التي كانت تفرض حضورًا نسائيًا خالصًا من أي تسلل للعنصر الذكوري. غير أن هذا المشهد سرعان ما سيتحول ابتداءً من أواخر تسعينيات القرن العشرين مع صدور فتوى الشيخ يوسف القرضاوي ـ أحد أهم مفكري حركة الإخوان المسلمين ـ بجواز غناء المرأة؛ شريطة احترام المضمون الملتزم للأغنية بعيدًا من إثارة الغرائز وأساليب الإغراء. وقد صرحت المنشدة الفلسطينية ميس شلش لجريدة **هيسبريس** في أحد المهرجانات: «لا يضايقني «صوتي عورة» والقرضاوي أفتى لي بالغناء»[1].

ويمكن تسجيل هذه النقلة القيمية في الفكر الدعوي للحركات الإسلامية والتي أسَّس لها الشيخ يوسف القرضاوي في سلسلة **ترشيد الصحوة (2)** وكتابه **الإسلام والفن** سنة 1996، الذي حاجج فيه المواقف المتشددة في تحريم الفن وخصوصًا الغناء والموسيقى؛ بموقفه الذي ضمنه في محور «فن الجمال المسموع» (الغناء والموسيقى): «لا شيء في الغناء إلا أنه من طيبات الدنيا التي تستلذها الأنفس، وتستطيبها العقول، وتستحسنها الفطر، وتشتهيها الأسماع، فهو لذة الأذن» (القرضاوي، 1996: 53). على أساس أن الغناء والموسيقى من أشكال الفن التي تعكس قيمة الجمال والشعور به» إن الإسلام يُحيي الشعور بالجمال، ويؤيد الفن الجميل، ولكن بشروط معينة، بحيث يُصلح ولا يفسد، يبني ولا يهدم» (القرضاوي، 1996: 7).

هكذا ستتحول مضامين الأنشودة/الأغنية الإسلامية من مضامين تحثُّ على تذكُّر هازم اللذات (الموت) وأناشيد الجهاد ومواضيع الاغتراب الإسلامي التي كانت تنشدها «الأخوات» تأسيًّا بـ «الإخوان» في كل المناسبات السعيدة منها كالأعراس والعقيقة والختان والحج.. وأيضًا في المناسبات الحزينة كالمآتم؛ إلى اعتماد أغانٍ أكثر بهجةً بإيقاعات خفيفة تسمح بتفاعل ورقص النساء، كما بتنَ يُقلِّدن المجموعات الغنائية الشعبية ويضفين عليها بعضًا من الكلمات الدينية، أو حتى الأغاني العربية الأكثر شهرة. أما في زمن الإنترنت فخرجت المرأة من دوائر الحدود

(1) <https://www.hespress.com> (accessed on 19 July 2024).

الأنثوية إلى عالم أكثر انفتاحًا على النجومية والشهرة، بحجابها المخفَّف ولمسةٍ من جمالِ المساحيق، لتُصدر بدورها ألبومات غنائية متنوعة نذكر منها على سبيل المثال: مجموعات غنائية تعتلي خشبات المسارح العمومية بالحجاب الإسلامي كفرقة بنات الشيشان، وبزيّها الإسلامي الموحد من المدرسة الدينية الألبانية تؤدي فرقة Medreseja أمام جمهور كبير مذاعة على القنوات العمومية وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، وغيرها من فرق الإنشاد الإسلامية لنساء محجبات عبر العالم من إندونيسيا، وماليزيا... وفي الأداء الفردي تُحقق المنشدة الأندونيسية (Nissa Syabian) أعلى نسبة مشاهدات على اليوتيوب برقم يصل إلى (205 ملايين مشاهد)، ومن مصر المغنية أمل حجازي، وزينب محمد، وأميرة كويس، وإسراء عيسى... ومن شمال المغرب بشرى القاسمي في ألبوماتها التي تتنوع بين أناشيد الأعراس والمناسبات وأغاني اجتماعية وأخرى تدعو إلى قيمة التسامح الثقافي.

تأسيسًا على ما سبق، تحولت أنشودة الحركات الإسلامية من بُعدها المجاني «في سبيل الله» إلى السعي نحو الربح المادي والبحث عن توسيع دائرة المعجبين والمعجبات على غرار باقي نجوم الفن والغناء في العالم، في محاولة لإرضاء أذواق شريحة أوسع وأكثر تنوعًا من الجمهور. إنه الحلم الأمريكي المستورد «المال والشهرة» تسلَّل إلى المخيال الدعوي للشباب على تخوم الحركات الإسلامية، لتلتحق المرأة بهذه التنظيمات بدرب المنعتقين من الأحكام المتشددة في حق المواهب الفنية، متجهة نحو الانخراط في منظومة القيم الليبرالية مع بعض التحفظ على مستوى الشكل والكلمة ذات المضمون الدعوي الناعم.

ثالثًا: الزي الإسلامي للمرأة المحجبة بين قيمة الحياء واستهلاكية الحشمة

خَرَقَت المرأةُ المحجّبة قواعدَ الشرط الحركي الذي رافق مسار «الأخوات» في الحركات الإسلامية، ليتحول مشهد «اللِباس الشرعي» من ضوابط الزي الديني الذي صَمَّم تفاصيله وحدّد نسيج خيوطه وألوانه؛ جيلٌ من مفكري الإسلام السياسي، ذلك الحجاب بألوانه القاتمة وثوبه السميك وتصاميمه الخاصة بالمحجبات المنتميات إلى جيل الحركات الإسلامية؛ والذي مثّل رمزًا من رموز المنظومة القيمية التي تروم التمايز والتعبير عن الهوية الحركية وتقديم البديل الإسلامي لنموذج المرأة المسلمة الرافضة لكل أشكال الموضة آنذاك؛ لينعطف في اتجاه عالم الموضة والأزياء في سياق استهلاكي، يُخضع الحجابَ الإسلامي إلى سِجِّل معايير السوق ويجعله يحاكي صيحات موضة الأزياء العالمية؛ باحثًا له عن ملتقى حيث تتأكد لديه الهُويّة الدينية وديناميات الانفتاح الثقافي على كل بوابات العالم.

هو عالَم محكوم بالصورة وبجماليات الجسد الأنثوي التي ترتسم عليه كل مظاهر الرغبة الذكورية بين الرغبة في تفادي فتنته في الأمر بالستر وبين الرغبة في الاستمتاع بتفاصيل الطلة الأنثوية المُبْهجة؛ بين الكشف والستر وبين الحشمة والجرأة أو كما يُصطلح عليها بـ «الموضة الحلال»، لتغدو صالات عرض اللباس الإسلامي الحديث والأزياء؛ مِنصَّةً للاحتفال الاستهلاكي في دُور الأزياء العالمية وتتخذ المرأة المحجبة ممشاها على بساط عروض

الأزياء تحت أضواء الشهرة كمثيلاتها من نجمات عروض الأزياء العالمية. لتغدو هذه العروض بمنزلة استعراض فرجوي يناقض غاية نشأته الأولى وهذا ما وصفه غي دوبور(Guy Debord) في شذرته 158 «الفرجة/الاستعراض كتنظيم اجتماعي يُظهر شللًا في التاريخ والذاكرة» (Debord, 1967: 99).

انتقل الحجاب كنمط من أنماط التديّن إلى شكل من أشكال الانخراط في استهلاكية رموزه وقيمه وتسويقها كآلية من آليات الانتشار العالمي في صورته المخفَّفة والمثيرة للإعجاب، وباتت رموز التدين الإسلامي محض «علامة تجارية»؛ من أجل تحقيق الربح في سوق تفرض قيمها وقواعدها التنافسية من جهة، وأيضًا كنمط من أنماط الفردنة وإثبات الذات الأنثوية لدى جيل الستريت وييرStreet-) (wear الذي يتحلل من المعيارية الدينية من دون أن يتناقض معها تمامًا، والتي يصفها أوليفييه روا وهذا ما تعبر عنه اليوم إشكالية الحجاب الذي تضعه الفتيات بنحو إرادي: إنه تعبير عن إعادة تملك وإثبات الذات، وليس علامة على نوع من الامتثالية الاجتماعية» (روا، 2004: 76).

ختامًا

إذا كان باتريك هايني قد نجح إلى حد بعيد في الكشف عن الصورة التي باتت تسيطر على مشهد الديناميات الدينية في العالمين العربي والإسلامي، إلا أنه ظل سادلًا الستار على أشكال أخرى صاحبت ـ ولا تزال ـ الصورة العامة للتديّن الإسلامي للمرأة على وجه التحديد والتي تخضع للتلوينات الفكرية والمذهبية، بوصفها كيانًا مستقبلًا لكل التعليمات التي يتلقاها من مشارب فكرية متضاربة؛ يكشف عنها الجسد الأنثوي الخاضع للفكر الذكوري سواءٌ كان معتدلًا أو متشددًا أو معولمًا، ليظل السؤال مفتوحًا؛ إلى أي حد تعكس التحولات التي همت المجتمع النسائي داخل التنظيمات الإسلامية أو على تخومها وجهًا من أوجه السيادة الفكرية والهويَّاتية للمرأة المسلمة؟ وما شكل الداعيات الجديدات وآليات الدعوة والدعاية في عالم رقمي معولم بقيم سائلة تسمح بتدفق معايير جديدة وإنتاج أنماط جديدة من التديّن لدى النساء في هذه التنظيمات؟

المراجع

جرموني، رشيد (2022). **الدين والإعلام في سوسيولوجيا التحولات الدينية**. ط ٢. الرباط: دار القرويين للنشر والتوزيع.

حمودي، عبد الله (2015). **الحداثة والهوية: سياسة الخطاب والحكم المعرفي حول الدين واللغة**. بيروت: المركز الثقافي العربي.

روا، أوليفييه. (2004). **الإسلام المعولم**. الرباط: مركز طارق بن زياد.

القرضاوي، يوسف (1996). **الإسلام والفن**. القاهرة: مكتبة وهيبة.

هايني، باتريك. (2016). **إسلام السوق**. ترجمة عومرية سلطاني. القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

Debord, Guy (1967). *La Société du spectacle*. Paris: Gallimard.